الخارجين على القانون والفارين من وجه الاتراك والباشوات ، الذين ارسلوا الى الباب العالي في اسطنبول ، يستنجدون به لحمايتهم وحماية ممتلكاتهم من سطوة الشيخ لافي ورجاله من قطاع الطرق ، بعد ان عجز الوالي في بيروت عن ذلك · وسرعان ما شاع في القرى ، ان جمال باشا السفاح ، قد جاء على رأس جيش من دمشق لتأديبه وتعليقه مع جميع رجاله وكل من يأويهم ، على اعواد المشانق التي راح الاتراك ينصبونها في كل القرى ، كي يراهم الناس جميعا ، فراح اهل البارد يفرون بعيالهم الى المغاور في الجبال ، بعد ان رفض اهل القرى المجاورة ايواءهم ،بينما راح الشيخ لافي ورجاله يستعدون لمواجهة جنود جمال باشا ، اذ فضلوا الموت في القتال على المذلة وتعليقهم على اعواد المشانق ·

ولكنهم ما كادوا ينتشرون في الجبال ، حتى كان الاتراك يدقون الطبول في مدينة جنين ، وفي كل القرى المحيطة بها ، وعمت الاخبار عن حرب كبرى قد نشبت بين الاتراك وحلفائهم الالمان ، مع الانجليز والفرنسيين ، وان جمال باشا قد أمر بأخذ جميع الرجال البالغين الى العسكرية ، وشحنهم بالقطار الى « الترعة » في مصر ، لاحتلالهامن الانجليز ، وانه قد اصدر حكمه بالاعدام على كل من يتخلف عن الحرب ، او يفر من العسكرية ، بعد ان بدأ الكثير من الشباب بالفرار الى الجبال هربا من العسكرية · فسارع الشيخ لافي الى نشر رجاله في الجبال للبحث عن هؤلاء « الفرار » ، كي ينضموا اليه والوقوف معه في وجه الجنود الاتراك الذين بدأوا يلاحقونهم ·

□

كانت المجاعة قد بدأت تفتك بالناس منذ السنة الثانية للحرب ، اذ لم يتركوا لدى الفلاحين شيئا الا واخذوه ، واجتاح الجراد المرج ، قاضيا على الاخضر واليابس امامه ، وانتشرت الحرائق في قرى المرج لطرد وباء الكوليرا ، وهام الشيوخ والنساء على وجوههم يبحثون عن حب الشعير والذرة في روث خيول الاتراك ومواشيهم المتجهة الى الجبهة في « الترعة » ، بعد ان خلت القرى من « الفرار » الذين راحوا يشكلون عصابات في الجبال ، للاغارة على محاصيل الاقطاعيين والقوافل المتجهة الى الجبهة ومعسكرات الاتراك ، بحثا عن الطعام ·

وما كادت حرائق الكوليرا تخمد ، حتى عمت « الجدري » ، التي كادت تقضي على من تبقى من الناس في القرى ، وكان الشيخ لافي اول من اصيب بها من بين رجاله ، وتفشت التآليل في جسده ، حتى لم يعد ثمة موضع قيراط واحد في جسمه يستدير عليه ، فاعتزل في مغارة سويد ، لا يدخل عليه احد ،